

السنة الثامنة والثمانون وأربع مئة

قد^(١) ذكرنا مسير تُشش إلى هَمَدان، وكان بعث ولده فخر الملوك رضوان يطلبه بعساكر الشام، فسار ومعه الأمير^(٢) نجم الدين إيل غازي بن أرتق، ووثاب بن محمود بن صالح، وجماعة من أمراء العرب، فنزلوا على الرحبة، وبعث تاج الدولة تُشش يوسف بن آبق^(٣) التركماني إلى بغداد في صفر لإقامة الدعوة [له]^(٤) فلم يلتفت إليه. وقيل: أُخْرِجَ إليه حاجبٌ من الديوان، فلماً لقيه ضربه يوسف ونزل بدار المملكة، وكان في عزمه نهب بغداد، فاستعدَّ له الوزير، وأحضر صدقة بن منصور وكان نافراً عن تُشش، فبينما يوسف على عزم السوء جاءه أخوه فأخبره بقتل تاج الدولة تُشش، فانهمز إلى حلب.

وفي ربيع الأول حُطِبَ لولي العهد أبي منصور الفضل بن المستظهر.

وفي ربيع الآخر خرج الوزير عميد الدولة فخطَّ السُّور على حريم دار الخلافة بأمر المستظهر، وهذا السور المذكور في الملاحم، وأنه يسعى في بنائه رجلٌ أصفرٌ من بني تغلب [يعني^(٥)] عميد الدولة ابن جَهِير، قال الشاعر: [من الطويل]

إذا طَلَعَ المَرِيخُ من أرضِ بَابِلٍ وقارنُهُ التَّجْمَانِ فالهَرَبِ الهَرَبِ
ويبني على الزُّوراءِ أصْفَرُ تغْلِبِ على الجانِبِ الشَّرْقِيِّ سوراً على شَغْبِ
ويبنيه غلمانٌ يُخالطهم نِساءُ وفيهم رجالٌ بالمزاهرِ واللُّعْبِ

ولمَّا خطَّ الوزير السُّور تقدَّم بجباية المال الذي يحتاج إليه من عقارات الناس ودُورهم، واجتمع أهلُ المحالِّ بالأعلام والبوقات والدَّبَادب وأنواع الملاهي والزمور والخيالات، وجرى من المنكرات وإخراق الربيعة ما لم تجر به عادة، وساءت السمعة باجتماع الرجال والنساء والمخانيث واختلاطهم، فأنكر علي بن عقيل على الوزير، وكتب إليه كتاباً طويلاً من جملة: كان هذا الخرق الذي جرى بالشرعية عن عمدٍ لمناسبة واضعها، فما بالنا نعتقد

(١) قبلها في (خ) زيادة كلمة: فيها.

(٢) بعدها في (خ) زيادة كلمة: ابن.

(٣) تحرف في الأصلين (خ) و(ب) إلى: أرتق، وقد تقدم - على الصواب - قريباً.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب) والمنتظم ١٧/١٥.

(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

القرآن ورواية الأحاديث؟ وإذا نزلت بنا نازلةً تقدمنا بجموع الختمات والأدعية عقيها؟ وأين هذا من طبول وزمور مخانيث وخيالات وكشف عورات؟ ومعنى هذا أننا مستهزؤون بحكم الله لا نبالي به، فبأي وجه نلقى محمداً ﷺ؟ وأي حرمة تبقى لنا عند الله؟ ثم إنك يا ابن جهير تقيم الحدود في عتبة باب تأمر بلثم ترابه، ثم تمزج العوام في المنكر المجمع على تحريمه. وذكر كلاماً طويلاً بمعناه، فلم يلتفت إليه، وجرت الأمور على ما هي عليه حتى استدار سور الحريم.

وفي رمضان جرح السلطان بركياروق إنساناً سِجْزِيًّا، فأخذ فأقرَّ على رجلين سِجْزِيَّين أنهما أعطياه مئة دينار، فقتلَ الرجل، وأخذَ الرجلان فقرراً، فطرحَ أحدهما تحت أرجل الفيلة، فقال: خلصوني حتى أُفَرَّ. فخلصوه، فقال لرفيقه: يا أخي، لا بُدَّ من هذه القتلة فلا تفضح أهل سجستان بإفشاء سرهم. فقتلوا.

وفي ذي القعدة خرج أبو حامد الغزالي من بغداد متوجهاً إلى البيت المقدس زاهداً في التدريس بالنظامية، لابساً خشن الثياب بعد ناعمها، وناب عنه أخوه أحمد في التدريس، وعاد في السنة الثالثة من خروجه منها، وقد صَنَّفَ كتاب «الإحياء»، ثم حجَّ سنة تسعين وعاد إلى بلده.

وقال بعضهم: ولما دخل بغداد قوم ما عليه من الثياب والطوق في عنق بغلته بألف دينار، ثم عاد إلى بغداد وجميع ما عليه يساوي ديناراً، فنزل في رباط أبي سعيد الصوفي، واجتمع إليه خلقٌ كثير يسمعون عليه الأخبار.

وفيها اصطُح أهل السنة والشيعة ببغداد، ودخل أهل باب البصرة الكرخ، ودخل أهل الكرخ إليهم وعملوا الدعوات وتزاوروا، وجاء أهل باب الأزج المختارة، ودخل أهل المختارة إلى باب الأزج، وهذا من العجائب، ما جرى مثله ببغداد إلا نوبة النسوي؛ بغضاً لولاية النسوي عليهم، أما في هذه النوبة فبغير سبب ظهر لكنها خطرات^(١).

(١) هذه الأخبار بنحوها في المنتظم ١٧/١٥-١٨، والكامل ١٠/٢٥١-٢٥٢.

وفيهما تُوفِّي

تُشُّ بن ألب أرسلان

محمد بن داود بن ميكائيل، أبو سعيد، تاج الدولة، كان مقيماً بالشرق، فاستنجده أنسيز الحوارزمي صاحب الشام، فقدم دمشق سنة اثنتين وسبعين وأربع مئة، فقتل أنسيز، واستولى على دمشق، وامتدت أيامه، وهو الذي قتل آق سنقر وبُزان، وسار إلى الشرق وملك همذان، وكان ابن أخيه بركياروق بالري قد حشد وجمع ثلاثين ألفاً، وتُشُّ في خمسة عشر ألفاً، فالتقوا على الري يوم الأحد سابع [عشر^(١)] صفر هذه السنة، وكان تُشُّ في القلب مقابل بركياروق، وكان لماً قُتِلَ آق سنقر وبُزان أخذ جماعة من الأمراء فقتلهم بين يديه صبراً، وكان بكجور من أكابر الأمراء، فقتل أولاده [بين يديه] صبراً، وأفلت إلى بركياروق، وكان تُشُّ قد نادى في عسكره قبل المصاف يوم: مَنْ ظفرت به من عسكر بركياروق فاقتلوه، ومن بقي بعد الحرب فأنا أقتله. فاستشعر العسكر منه، فلماً التقوا على الري استأمن أكثر عسكر تُشُّ إلى بركياروق، وجاء بكجور إلى بركياروق وهو يبكي على أولاده، فقال: قد قتل عمك أولادي بين يدي صبراً، وأنا قاتله بأولادي لأخذ بثأري. فقال: افعل. فلما نشبت الحرب واختلط الناس قصد بكجور تاج الدولة فطعنه فألقاه عن فرسه، ونزل [سُنْفُرجه - وكان صاحب ثأر -] فحز رأسه. وقيل: رماه مملوك بُزان بسهم في ظهره فوق، فقتلوه وأتوا برأسه إلى بركياروق، فطيف به في العسكر، وبعث به إلى بغداد، وانهزم أصحابه وأمر بركياروق بالكف عنهم، ونادى بالأمان، وأسير فخر الملك علي بن نظام الملك وزير تُشُّ، فعفا عنه بركياروق لأجل أخيه مؤيد الملك وزيره، وكان المستظهر قد هياً الطيار، وأخذ بالحزم، وأعد السفن، ونقل إليها أمواله وأهله لينحدر إلى الأهواز، وخرج عميد الدولة إلى حلة صدقة خوفاً من ظهور تُشُّ، فجاء - من لطف الله - مالم يكن في الحساب، فقتل تُشُّ، وظيف برأسه في إقطاع بغداد، ثم وُضِعَ في خزانة الرؤوس، وعاد ابن جَهير ووضع الرأس بين يديه، فقال أبو الفضل عطية يخاطبه: [من البسيط]

(١) ما بين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

وراية كاد أن يُعنى الزمانُ بها
ضربنَ بالريِّ من آرائه قُضْباً
ومأتمَّ قامَ نحوَ الغربِ صارخُهُ
ومعجزاتِ أرادَ اللهُ يُظهرها
ذكر ما جرى لأولاد تُتَش :

كان ابنه رضوان قد خرج من الشام بجيش كثيف يريد أباه لينصره، ووصل الرحبة، فبلغه مقتلُ أبيه، فعاد إلى حلب، ففتحت له، ووصل [إليه] ^(١) من الفل ^(٢) الذين كانوا مع أبيه أخوة دُفاق وجماعةٌ من خواص أبيه، فأقام بحلب مدةً يسيرة، وكان ساوتكين الخادم والي دمشق، فكتب دُفاقاً، ووعده أن يُسلمها إليه، فسار إليها. ولم يُعلم أخاه رضوان، وبلغه مسيره، فبعث وراءه عسكرياً فلم يلحقه، ودخل دمشق، وحسده رضوان، فسار إليه بالعساكر، فحصره مدة شهرين فلم يظفرَ بطائل، فعاد إلى حلب، وبعث دُفاق إلى بركياروق يُعرِّفه، فأرسل إليه طُعَتِكين مملوك تُتَش ليدبِّر أمره، فقتل ساوتكين الخادم، وأقام بدمشق.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: ورد الخبرُ إلى رضوان بقتل أبيه وهو نازل بعانة على الفرات يريد المسير إلى أبيه، فقلق، وسار مُعذّاً في نفر من غلمانِه وخواصّه إلى حلب، ونزل العسكر، ورآه، وفتح الوزير أبو القاسم النائب بالقلعة لها أبوابها، فصعد إليها، ووصل إليه أخوه دُفاق من ناحية ديار بكر، فأقام بحلب مدةً، ثم راسل ^(٣) ساوتكين المقيم بقلعة دمشق، فأجابه، فخرج في الحال من حلب [ليلاً ^(٤)] مُجِداً ليلاً ونهاراً، وبعث رضوان خلفه الخيل ففاتهم، ووصل دمشق، فأجلسه ساوتكين في منصب أبيه، وأخذ له العهد على الأمراء والعساكر، فاستقام أمره، ووردت الأخبارُ بخلاص الأمير ظهير الدين طُعَتِكين أتاك من اعتقاله عقيب الكسرة، وتوجّه عائداً إلى دمشق، وخرج

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في (خ): القتل، والمثبت من (ب)، والقل: المنهزمون.

(٣) في (خ): أرسل، والمثبت من (ب).

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

صاحبه حصن الدولة بختيار شحنة دمشق ليلتيه، وقد كان تُتَشُّ رُشَّح طُغْتِكِين في حداثة سنّه لحجبتة، واستتابه في عسكره، وفوَّض إليه أموره أيام غيبته، فأحسن السيرة، وأنصف الرعية، فعَلَّتْ منزلته، وولَّاه مِيَّافَارِقِينَ وهي أول ولايته، وسلَّم إليه ولده دُقاق، واعتمد عليه في تربيته، فدبَّر أمر مِيَّافَارِقِينَ، وأنكى في جماعة عُرِفَ منهم خيانةً ومخامرةً، فاستقامت أحوالها، وسار مع تُتَشُّ إلى لقاء بركياروق، وشهد الواقعة، وأسر واعتقل، ثم خلص، فسار إلى دمشق في هذه السنة، فتلَّقاه دُقاق في العسكر وأرباب الدولة، وبالغ في إكرامه، وردَّ إليه النظر في الإسفهلارية على حاله، وأتهم ساوتكين برضوان فقتل، وتزوَّج طُغْتِكِين بخاتون أم دُقاق، وأحسن السيرة، وكان رضوان يحبُّ دمشق ولا يختار غيرها، فجمع واستنجد بِسُكْمَانَ بن أُرْتُق، وبرز طالباً دمشق، وقد كان دُقاق غاب عنها في هذا الوقت مع يغي شعبان^(١) وإيل غازي بن أُرْتُق، ووصل رضوان بعسكره، ونزل ظاهر دمشق. وقيل: كان ذلك سنة تسع وثمانين، وكان بدمشق وزير دُقاق زين الدولة محمد بن الوزير أبو القاسم، ونفرٌ قليل من العسكر، وانضاف إليهم جماعة من الأحداث، وأغلقوا الأبواب، وصعدوا على الأسوار، ورشقوهم بالنُّشَّاب، فرجعوا إليهم من سوق الغنم وباب الجابية والباب الصغير، فأراد أهل البلد الخروج إليهم ودفعهم، فمنعهم بختيار شحنة البلد وأمين الدولة محمد بن الصوفي رئيس البلد، وقاتلوهم على الأسوار، ومنعوا الوصول إليها.

وجاء حاجب رضوان حجر المنجنيق وهو قائمٌ يُحرِّض على القتال فقتله، وسكنت الحرب، واشتغلوا به، وعادوا إلى خيامهم ولم يتم لهم أمر، وبلغهم أنَّ دُقاق قد عاد بالعسكر، فرحلوا^(٢) وطلبوا مرج الصفر ليقصدوا القدس، ووصل دُقاق إلى دمشق، وسار رضوان طالباً ناحية حلب.

(١) هكذا وقع اسمه في الأصلين (خ) و(ب): شعبان، وفي الروضتين ١٨٧/١ و١٠١، وبغية الطلب ٤٨١/١ و١٩٥٦/٤ و٢٤١٣/٥ و٣٣٥٤/٧ و٢٤٧/١٠، وفي الكامل ٢٤٧/١٠، وتاريخ الإسلام ٤٨٣/١٠، والنجوم الزاهرة ١٤٧/٥، والعبر ٣٣٢، وبغية الطلب ٨٧/١، سيان، وفي السير ٤٠١/٩: بسان.
(٢) في (خ): فدخلوا، والمثبت من (ب).

وقيل: إن أولاد تُشش اقتسموا البلاد، فكانت حلب ومايلها لرضوان، ودمشق وميافارقين لدُقاق، وانكفاً يغني شعبان إلى أنطاكية.

رزق الله بن عبد الوهاب^(١)

ابن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن يزيد بن أكينة بن إبراهيم بن عبد الله، ويقال: أكينة هو إبراهيم، وعبدالله بن إبراهيم كان اسمه عبد اللات، فسمّاه رسول الله ﷺ: عبد الله، وعلمه، وأرسله إلى الإمامة والبحرين ليعلمهم أمر دينهم، ودعا له، فقال رسول الله ﷺ: «نزعَ اللهُ من صدرك وصدرك ولدك العُشَّ والغُلَّ إلى يوم القيامة»^(٢).

وكنية رزق الله أبو محمد التميمي الحنبلي، ولد سنة إحدى وأربع مئة، وقيل: سنة أربع مئة، وقرأ القرآن على أبي الحسن الحمامي بالروايات، وسمع الأحاديث، وتفقه على أبي علي بن موسى الهاشمي، وشهد عند القاضي أبي عبد الله الحسن بن علي ابن ماكولا قاضي القضاة، فلما ولي بعده قاضي القضاة أبو عبدالله الدامغاني ترك الشهادة ترفُّعاً أن يشهد عنده، فجاء قاضي القضاة إليه مستدعياً لمودّته وشهادته عنده، فلم يشهد، وكان التميمي قد جمع بين الفقه والقرآن والحديث والأدب والوعظ وحُسن الصورة، فوقع له القبول التام عند الخاصّ والعامّ، وجعله الخليفة رسولاً إلى السلطان في مهام الدولة، وهو الذي بعثه فأحضر عميد الدولة ابن جَهير من ميافارقين يستوزره، وكان له حلقة في الفقه والحديث والفتوى والوعظ بجامع المنصور، فلما انتقل إلى باب المراتب كانت له حلقة بجامع القصر، وكان يقصُّ في رجب وشعبان ويوم عرفة وعاشوراء عند قبر الإمام أحمد رضي الله عنه، ومن شعره: [من الطويل]

أفُقُ يافؤادي مِنْ غرامِكَ واستَمِعْ مقالةً محزونٍ عليكِ شفيقِ
علقتَ فتاةً قلبُها مُتعلِّقٌ بغيرِكَ فاستوثقتَ غيرَ وثيقِ
فأصبحتَ موثوقاً وراحتَ طليقةً فكم بينَ موثوقٍ وبينَ طليقِ

(١) المنتظم ١٧/١٩-٢١.

(٢) لم أقف على من أخرجه، لكن ذكره ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ١/٨٣.

وكانت وفاته ليلة الثلاثاء خامس عشر جمادى الأولى، وصلى عليه ابنه أبو الفضل عبد الواحد، ودُفِنَ في داره بباب المراتب بإذن الخليفة، ولم يُدْفَنَ بها أحدٌ قبله، ثم توفي ابنه أبو الفضل سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، فنُقِلَ معه ولده إلى مقبرة باب حرب فدُفِنَ إلى جانب أبيه وجده وعمه بدُكَّة الإمام أحمد رحمة الله عليه عن يمينه. سمع خلقاً كثيراً، وروى عنه ابنُ ناصر وطبقته، وأجمعوا على فضله وصدقه وثقته ورياسته.

وقال علي بن عقيل: كان التميمي سيّد الجماعة من أصحاب الإمام أحمد يُمناً ورياسةً وحشمةً، وكان أحلى الناس عبارةً في النظر، وأجراًهم في الفتيا، وأحسنهم وعظماً.

عبد السلام بن محمد^(١)

ابن يوسف بن بُندار، أبو يوسف، القرويني، شيخ المعتزلة في زمانه، ولد سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة، وقرأ القرآن، سمع الحديث، وقرأ الكلام على عبد الجبار الهمداني، وفسّر القرآن في سبع مئة مجلدة - وقيل: في ثلاث مئة. وقيل: في أربع مئة - والكتاب وقف في مشهد^(٢) أبي حنيفة، وقال: من قرأه عليّ وهبته له، فلم يقرأه عليه أحد.

ورحل إلى مصر، فأقام بها أربعين سنة، وحصل أحمالاً من الكتب، وحملها إلى بغداد، وكان محترماً، إذا دخل على قاضي القضاة الدامغاني قام له وأجلسه إلى جانبه، وكان ظريفاً، حسن العشرة، سمحاً، وكان يخالط بني جَهير، فلما أخرجوا من بغداد اتُّهم بأنَّ لهم عنده ودائع، فوكل به بعض الأتراك، فقيل له: ادعُ الله. فقال: مالله في هذا شيء هذا فعلُ الظلِّمة.

ودخل على نظام الملك وعنده أبو محمد التميمي ورجل آخر أشعري، فقال له: أيها الصدر، قد اجتمع عندك رؤوس أهل النار. قال: وكيف؟ قال: أنا معتزلي وهذا مُشَبَّهي - يعني التميمي - وذاك أشعري، وبعضنا يكفِّر بعضاً. فضحك النظام وقال:

(١) المنتظم ٢١/١٧، وتاريخ دمشق ٢٦/٢١٨-٢٢٠.

(٢) في (ب): مسجد، والثبت موافق لما في النجوم الزاهرة ١٥٦/٥.

اجتمعت بملحد المعرة - يعني أبا العلاء - فقال لي : سمعت في مرثي الحسين بن علي مرثية تُكْتَب. فقلت : قد قال بعض فلاحي بلدنا أبياتاً يعجز عنها شيخ تنوخ. فقال : وما هي ؟ قلت : قوله : [من الكامل]

رأسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيِّهِ للمسلمين على قناة تُرْفَعُ
والمسلمون بمنظري وبمسمع لاجازع فيهم ولا مُتوجِّعُ
أيقظت أجفاناً وكنت أنمتها وأنمت عيناً لم تكن بك تهجعُ
ماروضةٌ إلا تمّنت أنها لك تربةٌ ولخَطَّ قبرك موضعُ^(١)
فقال المعري : ماسمعتُ أرقَّ من هذه.

وقال ابن عساكر : سكن طرابلس الشام مدة ، وكان يتشيع . فقال له ابن البراج متكلم الشيعة : ما تقول في الشيخين ؟ فقال : سفلان ساقطان . قال : من تعني ؟ قال : أنا وأنت . وقال أبو محمد بن طاوس : استأذنتُ عليه ببغداد فأذن ، فدخلتُ عليه فقال : من أين أنت ؟ قلت : من دمشق . فقال : من بلد النصب . فسمعتُ منه شيئاً يسيراً ، وكان قد أُفْعِدَ ، وكانت وفاته في ذي القعدة وقد بلغ ستاً وتسعين سنة ، ولم يتزوج إلا في آخر عمره ، ودفن بمقابر الخيزران عند أبي حنيفة رضي الله عنه.

محمد بن الحسين^(٢)

ابن عبدالله بن إبراهيم ، أبو شجاع ، الوزير ، الرُّوذراوري ، ولد بالأهواز بقلعة كنگور سنة سبع وثلاثين وأربع مئة . وكان القائم بأمر الله كاتبَ أباه يستدعيه للوزارة وهو بالأهواز ، فوصل الكتاب إليه وقد مات .

وكان أبو شجاع قد قرأ الفقه والعربية ، وسمع الحديث من جماعة ، وصنّف المصنفات الحسان ، منها كتابه الذي دُيِّلَ على «تجارب الأمم» ، ووَزَرَ للمقتدي سنة

(١) هذه الأبيات تُنسب إلى دُعبل الخزاعي ، وهي في ديوانه ص ٣٩٨-٣٩٩ ، ومعجم الأدباء ١١/١١٠-١١١ .

(٢) المنتظم ١٧/٢٢-٢٧ ، والكامل ١٠/٢٥٠-٢٥١ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/٢٧ .

سبع وسبعين، وعُزِلَ سنة أربع وثمانين، وكان سليماً من الطمع، وكان يملك حينئذ ست مئة ألف دينار، فأنفقها في الخيرات والصدقات.

قال أبو جعفر بن الخرقى: كنت أنا واحداً من عشرة يتولون إخراج صدقاته، فحسبتُ ما خرج على يدي فكان مئة ألف دينار، ووقف الوقوف، وبنى المساجد، وأكثر الإنعام على الأرامل واليتامى، وكان يبيع الخطوط المستحسنة ويتصدق بثمانها، ويقول: أَحَبُّ الأشياءِ إليَّ الدينار والخطُ الحسن، فأنا أخرج محبوبي لله تعالى.

ووقع مرضٌ في زمانه، فبعث إلى جميع ضعاف البلد أنواع الأشرطة والأدوية، وكان يخرج العشر من جميع أمواله النباتية على اختلاف أنواعها.

وعرضت عليه رقعة من بعض الصالحين يذكر فيها امرأة معها أربعة أطفال أيتام وهم غرأة جِياع، فقال لبعض أصحابه: امضِ إليهم، واحملْ لهم ما يُصلِحُهم. ثم خلع ثيابه وقال: واللَّهِ لا لَيْسْتُها، ولا أَكَلْتُ طعاماً، حتى تعود وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم. فمضى الرجل وعاد وهو يرعد من البرد.

وقال حاجبه الخاص: استدعاني ليلة، وأمرني بعمل قطايف، فعملتها، فلما حضرت بين يديه [قال: فرَّقها في الفقراء، فحملها الفَرَّاشون معي ففرَّقتها في الأضرَاء والفقراء، فقلتُ له في ذلك، فقال: لَمَّا حضر بين يدي^(١)] ذكرتُ نفساً تشتهيهِ ولا تقدرُ عليه، فتنعَّص عليَّ أكله، فلم أدق منه شيئاً. وكان قد ترك الاحتجاب، ويكلم المرأة والطفل، ويحضر مجالسه الفقهاء والعوام، ولا يمنع أحداً، وإذا أفتى الفقهاء بوجوب القصاص على شخص سأل أولياء الدم أخذَ شيء من ماله وأن يعفوا عنه، فإن فعلوا، وإلا أمر بالقصاص، وأعطى ذلك المال ورثة المقتول الثاني.

ولقد غمَّ الهلالُ في رمضان، فأمر بإفطار الناس، وأحضر أطباقاً فيها سُكَّر ولوز وأطعم الناس، ثم تبين أن اليوم من رمضان، فندم أشدَّ الندامة، وذبح البقر والغنم، وتصدَّق بصدقات كثيرة، وآلى أن لا^(٢) يتكلم في الفروع.

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) العبارة في الأصل (خ): وإلى الآن لم، والمثبت من (ب).

وفي أيامه سقطت المُكوس، وألبس أهل الذمة الغيار، وتقدّم إلى المحتسب أن يؤدّب كلّ من يفتح دُكَّانه يوم الجمعة ويغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم، وقال: هذه مشاركة لليهود في حفظ سنتهم^(١).

وحجّ في وزارته سنة ثمانين، فترك في طريقه الزاد مبدولاً والأدوية، وعمّ أهل الحرمين بصدقاته، وساوى الفقراء في إقامة المناسك والتعبّد، وكانت به وسوسة في الطهارة، فكتب إليه ابن عقيل رُفعةً ذكر فيها أخباراً تتعلّق بالوسوسة، مثل قوله ﷺ: «صبّوا على بول الأعرابي ذنوباً من ماء^(٢)» و«أمّطه عنك ولو بإذخرة^(٣)» و«يُغسل [من] بول الجارية، ويُنضح [من] بول الغلام^(٤)» ونحو ذلك، فزالت عنه الوسوسة.

ولمّا عُزِلَ خرج يوم الجمعة إلى الجامع ماشياً، فانثالت عليه العامة تصافحه وتدعو له، فقيل للخليفة: إنما قصد الشناعة عليك. فألزمه بيته، وأنكر على من تبعه، فبنى في دهليز داره مسجداً، فكان يؤدّن ويصلي فيه.

وبعث نظام الملك بإخراجه من بغداد، فأخرج إلى بلده، فأقام مدة، ثم استأذن الحجّ، فأذن له، فخرج إلى مكة.

قال أبو الحسن بن عبد السلام: اجتمعتُ به في المدينة، فقَبَّلَ يدي، فأعظمتُ ذلك، فقال لي: قد كنتَ تفعلُ بي هذا فأحبيتُ أن أكافيك.

وجاور بالمدينة، فلمّا مَرَضَ مَرَضَ الموت أمر أن يُحملَ إلى حضرة النبي ﷺ، فوقف وبكى وقال: يا رسول الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

(١) في المنتظم ١٧/٢٤: في حفظ سنتهم.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (٣٨٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو بمعناه في صحيح البخاري (٢٢١) ومسلم (٢٨٤). والذَّنوب: الدلو العظيمة. اللسان (ذنب).

(٣) أخرجه بنحوه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/٥٣، والدارقطني في السنن (٤٤٧)، والبيهقي في السنن ١٨/٤١٨ عن ابن عباس ﷺ، مرفوعاً.

وأخرجه البيهقي في المعرفة (٥٠١٥) من طريق آخر عن ابن عباس موقوفاً وقال: هذا هو الصحيح، موقوف، ثم قال عن المرفوع: لا يثبت.

(٤) أخرجه - بهذا اللفظ - أبو داود (٣٧٧) من حديث علي ﷺ. ويشهد له حديث أبي السمح ﷺ عند أبي داود - أيضاً - (٣٧٦)، والنسائي ١/١٥٨، والحاكم ١/١٦٦، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

يَاذِنِ اللَّهُ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ [النساء: ٦٤] وقد جئتُ معترفاً بذنوبي وجرائمي أرجو شفاعتك. وبكى، وتُوفِّي من يومه، ودُفِنَ بالبقيع عند قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ بعد أن صلوا عليه في مسجد رسول الله ﷺ، وزُوروا به الحضرة الشريفة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - وذلك في منتصف جمادى الآخرة، وهو ابن إحدى وخمسين سنة.

وكان متبرماً بالوزارة لدينه وورعه، وكان في غناء عنها، وما كان ينافس في الدنيا، وكانت أيامه أحسن الأيام، وزمانه أنضر الأزمان، ولم يكن في الوزارة من يحافظ على قوانين الشرع مثله، شديداً في أمور الآخرة والشريعة، سهلاً في أمور الدنيا. وقام للخلافة في أيام نظره حشمة واحترام عادت سالف الأزمان.

وكان أحسن الناس خطأً ولفظاً، وما كان يخرج كل يوم من بيته حتى يكتب شيئاً من القرآن ويقرأ ما تيسر، وما وجبت عليه زكاة قط.

وله شعر حسن، ولم يقل بعد الوزارة سوى هذه الأبيات في الزهد، وهي: [من

البيسط]

للشيب صبْحُ يَناجيني بِإسفارِ
إلى الصبّاحِ قُصارى المُدلجِ السَّاري
أبني بناها على جُرفِ لها هارِ
تَفنى أَلَا قُبِّحَتْ هاتِيكَ من دارِ
قَضِيَّتْها وكأَنَّ لَم أَقْضِ أوطاري
لَم تَعْتَلِقْ من خطاياها بأوزارِ
إِنَّ السَّعيدَ الذي يَنجو من النارِ
والله يَعْلَمُ إعلاني وإسارِي
رجوتُ عفوَ عظيمِ العفوِ^(١) غَفَّارِ

قد آن بعد ظلامِ الجهلِ إِبْصاري
ليلُ الشَّبَابِ قَصرٌ فاسِرٌ مُبتَكراً
كَم اغْتَراري بِالدُنْيا وَزُخْرُفِها
دارٌ ما تُمُها تَبقى وَلذَّتْها
فما انتفاعي بأوطارِ مَضَتْ سَلْفاً
فكنتُ إِذْ ظَفِرْتُ مِمَّا كَسَبْتُ يدي
ليسَ السَّعيدُ الذي دُنْياهُ تُسْعِدُهُ
أصبحتُ من سيَّاتي خائفاً وَجِلاً
إذا تعاضمني ذنبي وآيسني

(١) تحرفت في الأصلين (خ) و(ب) إلى: الذنب، وهو تحريف شنيع، والتصويب من خريدة القصر (القسم

ومن شعره قبل الوزارة: [من السريع]
 ما كان بالإحسانِ أولاكُم
 أحبابَ قلبي مآلكُم والجفا
 ما ضرركُم لو عُدتُم مُذَنفأ
 أنكرتُمونا مُذَ عَهدناكُم
 لانظرتُ عيني سوي شخصكُم
 جُرثُم وُحْنَتُم وتحامَلتُم
 يا قومِ ما أخونَكُم في الهوى
 جوروا وخونوا وانصِفوا واعدلوا
 ما كان أغناني عن المُشْتكى
 سَلُوا حُدَاةَ العِيسِ هل أُورِدتُ
 أو فاسألوا طيفَكُم هل رأى
 أحاولُ النَّومَ عسى أنني
 ما آنَ تقضون غريماً لَكُم
 يستنشِقُ الرِّيحَ إذا ما جرثُ
 وقال أيضا من شعره: [من الطويل].

لو زرتُم مَن كان يهواكُم
 ومَن بهذا الهجرِ أغراكُم
 مُمرَّضاً من بعدِ قتلاكُم
 وُحْنَتُمونا مُذَ حَفَظناكُم
 ولا أطاعَ القلبَ إلاكُم
 على المُعَنَى في قضايكُم
 وما على الهجرانِ أجراكُم
 في كلِّ حالٍ لا عَدِمناكُم
 إلى نجومِ اللَّيلِ لولاكُم
 ماء سوي دمعي مطاياكُم
 طرفي غفا من بعد مَسراكُم
 في مُستَلذِّ النَّومِ ألقاكُم
 يخشاكُم أن يتقاضاكُم
 من نحوِ نجدٍ أين مسراكُم

ألا ليتكُم عاينتُم بعد مسراكُم
 أنادي وعيني قد تفيضُ بذكركُم
 ولم غبثُم عن ناظري بعد رؤياكُم

وقوفي على الأطلالِ أنذبُ مغناكُم
 أيا جيرتي لِمَ أبعدَ البينُ مرماكُم
 ولم لعبَ البينُ المُشْتِ وأقصاكُم

محمد بن فتوح^(١)

ابن عبد الله بن حميد، أبو عبد الله بن أبي نصر، الحميدي، الأندلسي، من جزيرة
 ميورقة، ولد قبل الأربع مئة، وسمع الكثير، وسافر إلى الشام ومكة والعراق،

(١) المنتظم ٢٩/١٧ - ٣٠، وتاريخ دمشق ٧٧/٥٥ - ٨١، والأنساب ٢٣٣/٤، والكامل ١٠/٢٥٤. وتنتظر

بقية المصادر في السير ١٢/١٩.

واستوطن بغداد، وكان مختصاً بصحبة أبي علي بن حزم الظاهري، وحمل عنه أكثر كتبه، وقال: أصل أبي من قرطبة من محلة يقال لها: الرُصافة، وسكن الجزيرة - يعني الأندلس - وصنّف فأحسن التصنيف، وجمع بين الصحيحين، وكان حافظاً ثباتاً متقناً، وبلغ من حرصه على جمع العلم أنه كان يكتب في الليل في حرّ بغداد، ويجلس في إجمانة^(١) يتبرّد بالماء، وينسخ وهو على تلك الحالة.

وكانت وفاته ببغداد في ذي الحجة سابع عشره، وصلى عليه أبو بكر الشاشي في جامع الخليفة، وكان قد أوصى إلى الأجلّ مظفر بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند بشر الحافي، فخالف وصيته، ودُفنَ بباب أبرز، فرآه في المنام وهو يعاتبه ويقول: خالفت وصيتي؟! فنقله في صفر سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، فدفنه في دكة بشر الحافي قريباً منه.

وقال ابن ماكولا: صديقنا أبو عبد الله الحميدي من أهل العلم والفضل، ورد بغداد وسمع أصحاب الدارقطني وابن شاهين وغيرهم، وسمع منه خلقٌ كثير، وصنّف «تاريخ الأندلس»، ولم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم.

وقال ابن عساكر: وقف كتبه ببغداد على طلبة العلم، فنفخ الله بها، وكان حافظاً ديناً عفيفاً نزهاً، ومن شعره: [من الوافر]

طريقُ الزُّهدِ أفضلُ ما طريقِ وتقوى الله تَأدِيَةُ الحقوقِ
فلا يَغْرُرُكَ من يُدعى صديقاً فما في الأرضِ أَعْوَزُ من صديقِ
سألنا عن حقيقته قديماً فقال سألت عن بيض الأنوقِ
فثق بالله يَكْفِيكَ واستَعِنُهُ يُعِينُكَ ودَعِ بِنِيَّاتِ الطريقِ

محمد بن المظفر بن بَكْران^(٢)

القاضي، الشامي، منسوب إلى الشام، ولد بحماة سنة أربع مئة، وحبّ سنة سبع عشرة، وتفقه ببلده بعد حجّه، ثم قدم بغداد فتفقه على أبي الطيب الطبري، وسمع الحديث، وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني سنة اثنتين وخمسين، وناب عنه في القضاء،

(١) في (خ): إجمامه، والمثب من تاريخ دمشق، والإجمانة: إناء كبير يُغسل فيه الثياب.

(٢) المنتظم ١٧/٢٧-٢٩، والأنساب ٤/٢٢٩، والكامل ١٠/٢٥٣. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/٨٥.

وزكاه عنده أبو يعلى بن الفراء الحنبلي وابن السناني، وكان حسن الطريقة، كريم الأخلاق، عفيفاً، نزهاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان فيه جدّة، لا يقبل من سلطان عطية، ولا من صديق هدية، وأقام بمسجد بقطيعة الربيع يؤمُّ بأهله ويُدرِّس ويُقرأ عليه الحديث زائداً على خمس وخمسين سنة، ولمّا مات ابنُ الدامغاني أشار الوزير أبو شجاع على المقتدي بتقليده القضاء فامتنع، فمزالوا به حتى تقلّده في رمضان سنة ثمان وسبعين، وخُلِعَ عليه، وقُرئَ عهده، وشرط أن لا يأخذ على القضاء رزقاً، ولا يقبل شفاعَةً، ولا يُغيّر ملبوسه، فأجيب إلى ذلك، ولم يتغيّر عليه حاله في مأكَل ومشرب، وكان يتولّى القضاء بنفسه ولا يستنيب ولا يحابي مخلوقاً، فلمّا أقام على الحقّ نفرت عنه قلوب المبطلين، ولقّفوا له معايِب لم يلتصقَ به شيءٌ منها، فسخط عليه المقتدي، ومنع الشهود أن يحضروا مجلسه، فلم يتأثّر، ثم علم المقتدي باطنَ حاله، فرضي عنه بعد سنين وشهوراً، وعاد الشهود إلى مجلسه، واستقامت أحواله، ولم يجدوا من يقوم مقامه.

وأدعى عنده بعض الأتراك على رجل دعوى، فقال: ألك بينة؟ قال: نعم، المشطب بن محمد الفرغاني — وكان من فحول المناظرين، وكان يلبس الحرير ويتختم بالذهب — فقال التركي: فالسلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك يلبسان الحرير ويتختمان بالذهب؟ فقال القاضي: لا جرّم لو شهدا عندي على باقة بقل ما قبلتُ شهادتهما.

وكانت وفاته في شعبان، ودُفِنَ عند أبي العباس بن شريح قريباً من الكرخ، وكان ورعاً ثقةً صدوقاً.

منصور بن نصر الدولة بن مروان

صاحب ميّافارقين، قد ذكرنا سيرته، وأنه استولى على الجزيرة فمات بها، وحُمِلَ إلى أمِّد فدُفِنَ بقبّةٍ بنتها له زوجته ستُّ الناس بنت عميد الأمة سعيد بن نصر الدولة، ودُفِنَت بها أيضاً، وهي مُطلّة على دجلة.

فصل ولاية بني مروان الديار بكر:

أول ولايتهم سنة ثمانين وثلاث مئة، واستولى ابنُ جَهير على بلادهم سنة تسع وسبعين وأربع مئة، وتوفّي منصور في هذه السنة، فكانت مُدة ولايتهم نيّفاً ومئة سنة.

وأعيان ملوكهم أولهم باد الكردي ظهر سنة أربع وسبعين وثلاث مئة، وبعده مروان هو جدُّهم مَلَك سنة ثمانين وثلاث مئة، وملك بعده ولده أحمد، فأقام إلى سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة، وتوفي [وقام]^(١) بعده ولده نظام الدين وولده سعيد ومنصور وهو ابن نظام الدين، وقد ذكرناهم.

السنة التاسعة والثمانون وأربع مئة

فيها حكم المُنجّمون بأن يكون طوفانٌ مثل طوفان نوح عليه السلام، وكان ببغداد ابن عيشون المنجّم، فبلغه فقال: أخطأ المُنجّمون، طوفان نوح كان قد اجتمع في برج الحوت الطوالع السبعة، والآن فقد اجتمع ستة، زُحَل لم يجتمع معهم، ولكني أقول: إن بقعة من البقاع يجتمع فيها عالمٌ كثيرٌ فيغرقون. فقيل: ما ثمَّ أكبر من بغداد ويجتمع فيها مالم يجتمع في غيرها وربما كانت هي؟ فقال ابن عيشون: لا أدري غير ما قلت. فأمر الخليفة بإحكام المُسنّيات وسدّ القوارح، وكان الناس يتوقعون الغرق، فوصل الخبر بأن الحاج نزلوا في وادٍ عند نخلة، فأتاهم سيلٌ عظيمٌ فاجتاح جمالهم، وأخذ الرجال والنساء، وما نجا إلا من تعلّق برؤوس الجبال، فخلع الخليفة على ابن عيشون، وأجرى له جرايات، وأمن الناس الغرق^(٢).

وفي شعبان استوحش جناح الدولة حسين أتابك من رضوان، وكان تزوج والدة رضوان، وخاف على نفسه منه، ففصل^(٣) إلى حمص في خواصّه وعسكره، وكان قراحة يأتيه بها، فسلمها إليه، فنقل أهله إليها، وشرع في تحصينها وإحكام قلعتها، وأمن على نفسه، ووصل عُقيب انفصاله الأمير يغني شعبان صاحب أنطاكية إلى حلب، وشرع في الأمر والنهي، وجاءه عسكره، وبرز هو ورضوان من حلب إلى شيزر قاصدين دمشق، ثم وقع الخلاف بين مُقدّمي العساكر ففترّقوا، وعاد رضوان إلى حلب، ويغني شعبان إلى أنطاكية.

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) الخبر في المنتظم ١٧/ ٣١ - ٣٢.

(٣) فصل: خرج . المعجم الوسيط (فصل).